مابعد الطبيعة لأرسطوطاليس

بقلم
الدكتور عبد الرحمن بدوى

يحتل هذا الكتاب مركز الصدارة بين مؤلفات أرسطو طاليس وفيه أودع جماع فلسفته على أنه — كما أثبت بيجر — ليس كتاباً واحداً قصد أرسطوطاليس إلى تأليفه قصداً ، بل هو مجموع كتابات خطها فى ظروف مختلفة وأطوار من حياته متباينة ، ومن هنا لا يؤلف كلاً واحداً تسرى فيه روح واحدة ؛ كما تطرق الشك إلى صحة نسبة بعض فصوله إلى أرسطوطاليس .

حياة ارسطوطاليس

ولد أرسطوطاليس فى سنة ٣٨٤ ق . م بمدينة اسطاغيرا ، وهى مستعمرة قديمة أيونية على الشاطئ الشرقى من خلقيدية . وكان أبوه نيقوماخوس ، من جماعة الاسقلابيين ، وهى نقابة الأطباء فى بلاداليونان وكان طبيباً خاصاً لأمونتاس الثانى ملك مقدونية ، ووالد فيليب المقدونى الذى كان بدوره والد الاسكندر الأكبر . أما أمه فكانت أسرتها من خلقيس فى يوبيا وفقد أرسطو والده فى سن مبكرة ، وليس من المحتمل أن يكون قد تعلم منه الطب .

وحوالى سنة ٣٦٦ ق . م وأرسطو فى سن الثامنة عشرة جاء إلى أثينا ودخل الأكاديمية ، وهى المدرسة التى كان يدرس فيها أفلاطون مؤسسها . فدرس على أفلاطون وظل يتتلمذ له حتى وفاة الأستاذ ، مشتركاً فى التعليم فى الوقت نفسه ومؤلفاً لبعض المؤلفات الصغيرة المكتوبة غالباً على هيئة محاورات ، تقليداً لأسلوب الأستاذ (أفلاطون) فى الكتابة . توفى أفلاطون فى سنة ٣٤٨ ق . م فتولى رئاسة الأكاديمية ابن أخته اسپوسيبوس ، فغادر أرسطو أثينا ورحل هو وزميل له فى الدراسة يدعى اكسينوقراط إلى طرواد عند الطاغية هرمياس الأترنى ، وقام بالتدريس والبحث العلمى والاجتماعى . وبعد عامين أو ثلاثة نقل أرسطو مدرسته إلى ميتلين فى جزيرة لسبوس ، لكنه لم يقم ثم طويلا إذ دعاه فى سنة ٣٤٣ فيليب المقدونى إلى بلاطه فى مقدونيا ليكون مربياً لابنه الاسكندر الذى كانت سنه آنذاك ١٣ سنة .

وفى مقدونيا علم أرسطو بنبأ وفاة هرمياس سنة ٣٤١ ، فجاءت أخت أو بنت أخى هرمياس ، وهى فوثياس ولجأت إلى فيليب ، فتزوجها أرسطو . لكنها ماتت بعد قليل بعد أن أنجبت منه بنتاً ، فتزوج

أرسطو مرة ثانية من امرأة من بلده ، اسطاغيرا ، وهى التى أنجب منها ابنه نيقوماخوس الذى أهدى إليه كتاب « الأخلاق » .

لكن لم تطل مهمة أرسطو مربياً للأسكندر ، إذ تولى هذا العرش بعد ذلك بثلاث سنوات ، فانهمك فى الحيـــاة العسكرية والسياسية . لكن أرسطو لم يفارقه إلاّ بعد ذلك بمدة فى سنة ٣٣٥ ق .م ، إذ جاء فى هذه السنة إلى أثينا وفتح مدرسة بالقرب من معبد أپولون اللوقيونى ، ومن هنا سميت هذه المدرسة باسم « اللوقيون » ، قامت تنافس أكاديمية أفلاطون التى صار على رأسها آنذاك زميله القديم أكسينوقراط . وظل أرسطو يدرس فى مدرسته هذه طوال اثنتى عشرة سنة ، ويقوم بالأبحاث الفلكية والتشريحية والجوية والبيولوجية .

ولما توفى الأسكندر الأكبر فى سنة ٣٢٣ ق . م أصبحت اللوقيون مهددة من جانب الحزب المعادى للمقدونيين . لهذا رأى أرسطو من الحكمة ألا يجعل الأثينيين يرتكبون نفس الجريمة التى ارتكبوها مع سقـــراط ، فلجأ إلى مدينة خلقيس وطن أمه ، حيث توفى فى السنة التالية ، سنة ٣٢٢ ق . م وهو فى سن الثانية والستين .

مؤلفاته

ومؤلفات أرسطو عديدة متنوعة بحيث تؤلف دائرة معارف عصرها . وقد ذكر لنا بطلميوس الغريب عنوانات ٨٢ منها تتألف من ٥٥٠ مقالة . لكن قسماً كبيراً جداً منها ضاع ولم يصل إلينا . لكن لحسن الحظ أن الذى بقى هو الجانب الأهم . ذلك أن مؤلفاته تقسم إلى قسمين : « كتب منشورة » ويقصد بها إلى عامة الجمهور ؛ و « كتب مستورة » ويقصد بها إلى خاصة التلاميذ والمختصين وفيها العرض الشامل لمذهبه . ومعظم أو جل ما ضاع ينتسب إلى النوع الأول . وأما من حيث الأسلوب فالنوع الأول أجمل ، روعيت فيه مقتضيات البلاغة ، ولهذا قال عنها شيشرون إنها « نهر ذهبى يفيض بالبلاغة » . وعلى العكس من ذلك كان النوع الثانى ، وهو الموجه للخاصة ، ينقصه إحكام التأليف وبلاغة العبارة ، ولهذا جاء بعضه كأنه مجرد مذكرات يستعان بها فى إلقاء المحاضرة ، أو على هيئة شذرات غير متناسقة تماماً .

وتقسم كتب أرسطو من حيث الموضوع الى الأقسام التالية :

(ا) الكتب المنطقية :
(ب) الكتب الطبيعية .
(ج) الكتب الميتافيزيقية .
(د) الكتب الأخلاقية .
(هـ) الكتب الشعرية .

(ا) الكـتب المنطقية وتشمل

١ — « المقولات » وفيه يبحث فى أعم الصفات التى تطلق على الموجودات من الناحيـــة المنطقية : الجوهر ، الكم ، الكيف ، المكان ، الزمان ، الإضافة ، الوضع ، المِلْك ، الفعل ، الانفعال .

٢ — « العبارة » وفيه يبحث فى القضية من الناحية المنطقية .

٣ — « التحليلات الأولى » — وهى بحث فى القياس .

٤ — « التحليلات الثانية » — وهى بحث فى البرهان .

٥ — « المواضع الجدلية » ويبحث فى الحجج المحتملة .

(ب) الكـتب الطبيعية

٦ — « السماع الطبيعى » وهو كتابه الرئيسى فى علم الطبيعة ، ويقع فى ثمانى مقالات ، ويدرس الحركة والطبيعة والزمان والمكان .

٧ — « فى النفس » ويبحث فى الحياة فى مختلف أشكالها ، خصوصاً الحياة الحسية والعقلية ، ووظائف النفس ، وقواها ، والعقل .

٨ — « فى الكون والفساد » — ويبحث فى تكون الأشياء وانحلالها .

٩ — « فى السماء » ويبحث فى الاجرام بنوعيها : الفاسدة وهى الواقعة تحت فلك القمر ؛ والخالدة وهى الاجرام السماوية .

١٠ — « تاريخ الحيوان » — وهو دراسة علمية للحيوان .

(جـ) الكتب الميتافيزيقية

١١ — « ما بعد الطبيعة » — وهو موضوع هذا البحث .

(د) الكتب الأخلاقية

١٢ — « الأخلاق إلى نيقوماخوس » — أهداه كما قلنا إلى ابنه ؛ والكتاب صحيح النسبة إلى أرسطو . وفيه يدرس الأخلاق والفضائل الخ .

١٣ — « الأخلاق إلى أوذيموس » أو بالأحرى « الأخلاق تأليف أوذيموس » — إذ يشك تماماً فى صحة نسبته إلى أرسطو ، وهو بالأحرى بقلم أوذيموس .

١٤ — « الأخلاق الكبرى » — وهو منتزع من الكتابين السابقين ، ومن الراجح أنه ليس لأرسطو .

١٥ — « السياسة » — ويبحث فى الدولة ونظمها .

١٦ — « دستور الأثينيين » — وهو واحد من ٥٢ دستوراً درسها أرسطو ، وقد عثر عليه فى سنة ١٨٩١ بالفيوم بمصر .

(هـ) الكتب الشعرية

١٧ — « فى الشعر » — ولم يبق منه إلا قسم ، وفقد القسم المتعلق بالقومودية ، بينما بقى لنا ذلك المتعلق بالطراغودية .

كتاب « ما بعد الطبيعة »

هذا العنوان : « ما بعد الطبيعة » لم يضعه أرسطوطاليس ، بل وضعه أندرونيقوس الرودسى (عاش فى القرن الأول قبل الميلاد) وهو يرتب كتب أرسطو بعضها تلو البعض فجاء هذا الكتاب بعد كتاب « الطبيعة » (« السماع الطبيعى ») ولهذا سماه « ما بعد الطبيعة » أى : التالى فى الترتيب الذى وضعه هو لكتاب الطبيعة . فالمسألة مسألة ترتيب خارجى فحسب ، ولا شأن له بموضوع الكتاب . أما الاسم الذى كان يطلقه أرسطو نفسه على هذا الكتاب فهو : « الفلسفة الأولى » .

و « كتاب ما بعد الطبيعة » يتألف من ثلاث عشرة مقالة ترقم بالحروف اليونانية من ألفا إلى نو ؛ لكن مقالة الألفا تقسم أحياناً إلى قسمين : ألفا الكبرى ، وألفا الصغرى ، وبذلك يصبح عدد المقالات أربع عشرة مقالة .

وهاك ملخصاً إجمالياً بما فى كل مقالةٍ مقالةٍ :

١ — المقالة الأولى (ألفا الكبرى) ؛ تعرف الفلسفة بأنها تفسير الأشياء بأسبابها ، أو عللها ؛ والعلل أربع : علة فاعلية ، علة غائية ، علة مادية ، علة صورية . وهذه الأخيرة هى الأهم فى نظر أرسطو ، وهى المعنى الحقيقى للعلة . ومن الفصل الثالث حتى العاشر يأخذ أرسطو فى بيان تاريخ الفلسفة قبله ابتغاء أن يبين أنه لم يتم حتى الآن وضع حل لمشكلة الحقيقة ، لأن الأبحاث لم تقم على العلل الأربع التى كشف عنها أرسطو فى القسم الأول من هذه المقالة . وهكذا يتأيد القسم الأول النظرى بالقسم الثانى التاريخى . ولهذا القسم الثانى أهمية خاصة بالنسبة إلى تأريخ الفلسفة اليونانية .

٢ — المقالة الثانية (ألفا الصغرى) : موجزة جداً ، ويشك فى صحة نسبتها إلى الكتاب وإلى أرسطو

نفسه . وفيه يردد نفس الذى قاله فى المقالة الأولى من أن الفلسفة هى البحث عن العلل النهائية . ولابد من التوقف عند علل نهائية ، لأنه لا يمكن الاستمرار إلى غير نهاية .

٣ — المقالة الثالثة (بيتا) يتناول فيها ١٤ مسألة ميتافيزيقية ويبين الحجج المؤيدة والحجج المعارضة . ومن هنا جاء بحثه هنا على هيئة شكوك (أبوريات) . فمثلاً يبحث (١) هل ينتسب إلى علم واحد أو إلى عدة علوم — البحث فى كل أنواع العلل ؟ (٢) هل مبادئ البرهان موضوع علم واحد أو عدة علوم ؟ (٣) هل ها هنا علم واحد لكل الجواهر ، أو عدة علوم ؟ (٤) هل نقر بوجود جواهر محسوسة فقط ، أو نقر أيضاً بوجود جواهر غير محسوسة ؟ (٥) هل علم مابعد الطبيعة لا يشمل غير الجواهر ، أو يشمل أيضاً الأعراض الخاصة بالجواهر ؟ (٦) هل الأجناس عناصر ومبادئ للموجودات ؟ أو هذا هو من شأن الأجزاء الأولى المؤلفة لكل فرد ؟ (٧) ولو سلمنا بأن الأجناس هى المبادئ الحقيقية فهل ينبغى أن نعد المبادئ هى الأجناس الأولى أو الأنواع الدنيا التى تقال مباشرة على الأفراد ؟ (٨) إذا لم يكن هاهنا غير الأفراد ، والأفراد عددهم لا يتناهى ، فكيف يتأتى الحصول على علم بلا نهائية الأفراد ؟ (٩) إذا لم توجد وحدة بين المبادئ فكيف تتم المعرفة ؟ (١٠) إذا كانت المبادئ واحدة هى هى نفسها ، فكيف حدث إذن أن بعض الموجودات تكون وتفسد ، والبعض الآخر لا يكون ولا يفسد — وما السبب فى ذلك ؟ (١١) هل الموجود والواحد جواهر للأشياء أو ثم حقيقة أخرى هى موضوع الموجود والواحد ، وينبغى البحث عن طبيعتها ؟ (١٢) هل العناصر توجد بالقوة ، أو على نحو آخر ؟ (١٣) هل المبادئ كلية أو تندرج تحت الأمور الفردية ؟ (١٤) هل الأعداد والأجسام والسطوح والنقط جواهر أو غير جواهر ؟

٤ — المقالة الرابعة (الجما) : موضوع علم مابعد الطبيعة هو البحث فى الموجود بما هو موجود . وفى هذه المقالة يبحث أرسطو فى الموجود بما هو موجود ، أى من حيث وجوده فقط ، كما يبحث فى البديهيات وفى مبدأ التناقض . وتنقسم المقالة إلى قسمين : الأول (فصل ١ — ٢) يحدد موضوع الميتافيزيقيا ؛ والثانى (الفصل ٣ — ٨) نقدى يشمل برهاناً غير مباشر على المبادئ الأولى ، وخصوصاً مبدأ التناقض .

٥ — المقالة الخامسة (الدلتا) : هذه المقالة عبارة عن قاموس فلسفى ، إذ فيها يقدم أرسطو ثلاثين تعريفاً مفصلاً لثلاثين مصطلحاً فلسفياً هى :

المبدأ — العلة — العنصر — الطبيعة — الضرورى — الواحد — الموجود — الجوهر — ذات الشئ ، المخالف ، المباين — الشبيه — المتقابلات ، المتضادات ، الغيرية النوعية — المتقدم والمتأخر — القدرة ، قادر على ؛ العجز ، عاجز عن — الكم — الكيف — الإضافة — التام — النهاية — فيه ، وبه ، ومن أجله — الوضع — الحال — الانفعال — العدم — الملاك — يصدر عن — الجزء — الكل — المبتور — الجنس — الزائف — العرَض .

وواضح أن هذا المعجم الفلسفى لا يمكن أن يكون جزءاً من الكتاب الأصلى ، ولهذا يميل الباحثون إلى القول بأنه كان فى الأصل رسالة قائمة برأسها ثم أدمج فى كتاب ما بعد الطبيعة ، خصوصاً وأن ذيوجانس اللائرسى (٥ : ٢٧) يذكر من بين مؤلفات أرسطو رسالة عنوانها : « فى الأمور التى تقال بعدة معانٍ » .

ولم يتخذ أرسطو فى ايراد هذه الألفاظ أية قاعدة.

٦ — المقالة السادسة (مقالة الإبسلون) : وفيه يتناول الشك الأول الذى وضعه فى مقاله البيتا وأشرنا إليه من قبل ، ويتعلق بوحدة أو كثرة العلم

المتعلق بالعلل الأولى . والموضع المهم فى هذه المقالة هو النقطة الواردة فى ختام الفصل الأول وفيها يحاول أن يوفق بين التصور اللاهوتى الذى ورثه عن أفلاطون والذى يتميز بالقول بوجود إله عالٍ واحد ، وبين التصور الانطولوجى للميتافيزيقا بوصفها العلم الكلى بالموجود .

وبعد أن يميز أرسطو بين الفلسفة الأولى وبين سائر العلوم النظرية ، ويحدد طبيعتها وميدانها ويضع تقريرات حاسمة جديدة عن الموجود بما هو موجود ، ينتقل إلى دراسة المعانى المختلفة للوجود بحيث يستبعد من ميدان الميتافيزيقا على التوالى : الوجود بالعَرَض (فصل ٢ — ٣) والوجود بمعنى الحق (فصل ٤) ، إذ الأول غير قابل للعلم ، والثانى ليس إلا تعديلاً للفكر . كذلك يبحث فى تحديد العلاقة بين الميتافيزيقا وسائر العلوم الفزيائية والرياضية . ويبين معنى الحق والباطل .

٧ — المقالة السابعة (الزيتا) : يأخذ فى دراسة الموضوع الأساسى للميتافيزيقا وهو مشكلة الجوهر . وينتهى إلى أنه لا يمكن أن نعزو مرتبة الجوهر إلى الجنس والهيولى والكلى والفرد أو أجزائه ، بل فقط إلى الماهية ، أى إلى الصورة ، لا الصورة بالمعنى الأفلاطونى ، بل الصورة غير المفارقة ، القائمة فى المحسوس ، والتى هى موضوع التعريف .

٨ — المقالة الثامنة (الإيتا) : وتبحث فى الجوهر من ناحية الصورة والهيولى ، وتحلل طبيعة هاتين .

٩ — المقالة التاسعة (الثيتا) : وتبحث فى الجوهر منظوراً إليه فى وجوده وتغيره على ضوء مبدأى الفعل والقوة . والبحث الأساسى فيه يتعلق بالقوة والفعل وأنواعها المختلفة وعلاقاتهما المتبادلة . وبهذا ينتهى البحث الذى بدأه أرسطو فى المقالة السادسة عن معانى الوجود .

١٠ — المقالة العاشرة (الايوتا) وفيه يختم بحثه عن مبادىء الجوهر . فيعود إلى التحدث عن معانى الواحد : الواحد بمعنى المتصل ؛ الواحد بمعنى الكل ؛ الواحد بمعنى الفرد ؛ الواحد بمعنى الكلى . ثم ينتقل لبيان الكيفية التى بها يوجد الواحد . ويقابل بين الواحد والكثير ، ويفسر معنى التضاد ، ويشبع القول فى الواحد والكثير ، والغيرية النوعية .

١١ — المقالة الحادية عشرة (الكپا) : تنقسم إلى قسمين متباينين : الأول (فصل ١ — ٧) تكرار لما سبق أن ذكره فى المقالات الثالثة والرابعة والسادسة . والقسم الثانى (فصل ٨ — ١٢) منتزع من كتاب « السماع الطبيعى » ؛ وهذه المقتبسات يبدو أنها من عمل أحد تلاميذ أرسطو ، لسوء كتابتها ، ويمكن أن يعد هذا القسم الثانى مدخلا إلى ما بعد الطبيعة . وليس ثم اتصال طبيعى بين القسمين .

١٢ — المقالة الثانية عشرة (اللامدا ، مقالة اللام) تحتل هذه المقالة المركز الرئيسى فى الكتاب ، والصعوبات حولها عديدة . وقد رأى الباحثون المحدثون وعلى رأسهم بونتس ورص وبيجر أن هذه المقالة تؤلف رسالة قائمة برأسها ، مستقلة عن كتاب ما بعد الطبيعة ، موضوعها تقرير وجود محرك أزلى أبدى غير متحرك للكون وطبيعة هذا المحرك .

ويرى بيجر أن هذه المقالة ترجع إلى عهد مبكر فى حياة أرسطو ، وأنها كانت فى الأصل محاضرة ألقيت على الجمهور ، ومن هنا عنى أرسطو بتحريرها فجاء أسلوبها متقناً بخلاف سائر مقالات الكتاب ؛ لكن يجب أن نستبعد منها الفصل الثامن (فيما عدا الفقرة ١٠٧٤ ب ٣٢ — ٣٧) الذى يرجع إلى عهد متأخر فى حياة أرسطو يمثل تقدماً هائلاً بالنسبة إلى ما فى سائر المقالة .

وتنقسم المقالة إلى قسمين منفصلين : الأول من الفصل ١ إلى ٥ ، والثانى من الفصل ٦ إلى ١٠ . فى

الأول يلخص بسرعة النتائج المتعلقة بمشكلة الجوهر وينتهى إلى تقرير وجود موجود أول . والثانى يبحث فى الموجود الأول وصفاته ، وينتهى إلى تفضيل القول بالوحدانية ؛ لكنه فى الفصل الثامن يفضل التعدد ويقول بعدة محركين أوائل إما أن يكون عددهم ٤٧ أو ٥٥

١٣ و١٤ — المقالتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة (المو والنو) : مقالتان نقديتان تنقـــدان بالتفصيل المذاهب التى تضع مبدأ الحقيقة خارجاً عنها ، أى التى تقول بالصور (المثل الأفلاطونية) أو الأعـــداد (الفيثاغوريون والنزعة المتأثرة بالفيثاغورية فى الأكاديمية قبيل وفاة أفلاطون وبعيد وفاته) وهما يؤلفان كلاً واحداً فى نقد نظرية الصور ونظرية الأعداد .

* * *

وبعد هذا التخطيط الاجمالى لكتاب مابعد الطبيعة نلخص موضوعه :

الناس بطبعهم يرغبون فى المعرفة ، والدليل على ذلك اللذة التى تنشأ عن الاحساس ، خصوصـــاً الإبصار ، لأنه الأقدر على جعلنا نحصل قدراً أكبر من المعرفة .

لكن الإحساس ، وإن كان أساس معرفة الجزئى فإنه لايكون العلم الحقيقى .

والفلسفة هى العلم ببعض الأسباب وبعض المبادئ فما هى هذه العلل والمبادئ ؟

إنها العلل والمبادئ الأولى .

وعلم مابعد الطبيعة هو العـــلم الباحث فى الموجود بما هو موجود ، وهذا أعم الأشياء ، ولذلك كان العلم بما هو أعم ، بينما العلوم الجزئية تتناول نواحى معينة محدودة : كالرياضيات تدرس المقادير ، والطبيعيات تدرس الحركة .

علم ما بعد الطبيعة يدرس الموجود بما هو موجود وصفات الوجود الجوهرية . فما هى هذه الصفات ؟ هى : الواحد والكثير ، والذات والغير ، والامتداد بوجه عام ؛ والمتقدم والمتأخر ، والجنس والنوع ، والكل والجزء .

وعلى هذا العلم أيضاً أن يفسر المبادئ الخاصة بكل علم علم ، مما هو مفترض فى هذا العلم دون أن يبحث هذا العلم فيه .

وكل معرفة حقيقية هى معرفة بالعلل . ولهذا كان البحث عن العلل الأساس الأول فى المعرفة .

وينتهى أرسطو إلى أن العلل أربع : فاعلية ، غائية ، مادية ، صورية . فالمنضدة التى أكتب عليها : علتها الفاعلية هى النجار ، والغائية هى إمكان الكتابة ، والمادية هى الخشب ، والصورية هى الصورة التى هى عليها ، وهذه الصورة هى ماهيتها وحقيقتها . وأهم هـــذه العلل العلة الصورية .

والجوهر هو الموجود الحقيقى ، ولهذا كان نظر الفلسفـــة الأولى فى الجوهر : من حيث علله ومبادؤه .

و« الجواهر ثلاثة : منها جوهران طبيعيان ، وثالث جوهر غير متحرك . ونحن الآن فى طلب هذا الجوهر الذى لا يتحرك ، ولم يَزَلْ كذلك . فيُطْلَب : هل يمكن أن يكون جوهر لا يبليه الزمان ، ولا يقبل الاستحالات والتغاير ، لكن يبقى على حاله الدهرّ كلّه ؟ وليس يمكن أن يقام على هـــذا المبدأ برهان . فإن البرهان لا يكون إلاّ من علل ومبادئ . والعلة الأولى التى هى المبدأ الأول لا توجد لها علة قبلها . لكنا ننظر : هل يمكن أن يكون جوهرٌ ما أزلياً ؟ ثم نبحث : هل يمكن أن يكون جوهرٌ غير متحرك ؟ — وهاتان صفتان للمبدأ الأول .

« فنقول : إن كانت الجواهر كلها تقبـــل الفساد ، والجوهر قبل جميع الأشياء الموجودة ، لزم

أن تكون جميع الأشياء الموجودة تقبل الفساد . لكنه لابد من أن يكون للموجودات جوهرٌ دائم الوجود ، عنه وجودُها . وليس بعجبٍ أن يكون فى الموجودات جوهر أزلى ، إذ كنا نجد أشياءَ — من طبيعة الأعراض — أزليةً لا تفسُد . فإن الحركة والزمان ليس يمكن أن نضع لها كوناً وفساداً . فإنّا إن وضعنا الزمان كائناً ، لزم أن يكون الزمان أقدمَ من كونه . وإن وضعنا أنه يفسد ، تخلّف بعد فساده . فإن قول القائل : قد كان وقت لم يكن قبله زمان ، وسيكون وقت بعده زمان ، هى ألفاظ تناقض أصولها . لأن معانى هذه الألفاظ إنما هى أجزاء الزمان ، أو حدود فيه ، أو دلالات مقرونة به . فإن كان الزمان أزلياً ، فالحركة أزلية ، إذ كان الزمان مقـــداراً لها ، أو حَدَثاً عنها . وأيضاً ، فنقول إن الحركة لا تخلو أن تكون لم تَزَلْ ، أو تكون : إن كانت حدثت ، فقد كان قبلها المحركُ لها . فكيف يمكن أن نتوهم المحركُ لها ، وهو أزلىّ ، لم يكن عنه (أى التحريك) الدهرَ كله ، وليس مانع يمنعه من أن يكون عنـــه ، ولا حدث حادث فى حال ما أحدثها ؛ إذ كان جميع ما يحدث ، إنما يحدث عنه وليس شئ غيره يعوقه أو يرغبّه .ولا يمكن أن نقول : قد كان لا يقدر أن يكون عنه فقَدَر — لأن ذلك يوجب الاستحالة ، ويوجب أن يكون شئٌ آخر غيْره هو الذى أحاله . وإن قلنـــا إنه منعه مانع ، يلزم أن يكون سبب المانع أقوى . وحدوث الحركة ليس يكون إلاّ بحركة . فيجب أن يكون قبل الحركة حركة : لأن الاستحالة والتغير والفتور إنما هى من أنواع الحركة . ولا بد من أن يكون جسم من الأجسام هو الذى يتحرك . فإن قلنا إن ذلك الجسم لم يحدث ، لكنه تحرك عن سكون ، وجب أن نخبر بالسبب الذى له تغير من السكون إلى الحركة . فإن قلنا إن ذلك الجسم حدث ، تقدم حدوثُ الجسم حدوثَ الحركة .

« فإذ قد بان أن الحركة والزمان أزليان ، فالجسم أزلى . وإن كان العرض كذلك ، فبالحرى أن يكون الجوهر كذلك . والحركات : إما مستقيمة ، وإمّا مستديرة — والاتصال لا يكون إلا فيها (أى فى المستديرة) ، لأن المستقيمة تنقطع . والاتصال أمرٌ ضرورى للأشياء الأزلية . فإن الذى يسكن ليس بأزلى . ونقول إن الزمان متصل ، لأنه لا يمكن أن تكون قِطَعٌ منه مبتورةٌ . فيجب من ذلك أن تكون الحركة متصلة . فإن كانت الحركة المستديرة هى وحدها متصلة ، فيجب أن تكون هى الأزلية ، فيجب أن يكون محرِّك هذه الحركة أزلياً . لأن علة الأزلية يجب أن تكون أزلية ، إذ لا يكون ماهو أخسُّ علة لما هو أفضل . فيجب أن يحرك تحريكاً دائماً . فإنه إن كان محرِّكاً لكن ليس تحريكه بدائم ، فتحريكه لا يكون أزلياً ؛ وهذا لا يمكن أن يكون . فيجب إذن أن لانقنع بجواهر أزلية ساكنة كالصور . فإذن لا ينبغى أن نضع هذه الطبيعـــة بلا فعْل ، ولا متعطلة ، لكن قادرة أن تحرك وتحيل . فإنه لا يمكن أن المبدأ الأول موجودٌ فى طبيعته ما هو بالقوة . لأنه يلزم من هذا أن يحتاج ذلك المبدأ إلى مبدأ آخر هو بالفعل ، حتى يُخْرِجه إلى الفعل ، فيجب إذن أن يكون مبدأ موجودٌ فى الأشياء الموجودة ، الجوهرُ فعلُه ، فيكون أزلياً ، ولا يشوبه شئ من الهيولى ، إذ ليس فى طبيعته بالقوة .

«ولا يجب أن نظن أن القوة قبل الفعل : لأن الفعل هو المُخْرِج لما بالقوة إلى الفعل . فإنه ليس شىء من المواد تتحرك بذاتها إلى الصورة . لكن كما أن الخشب لا يتحرك من ذاته إلى صورة السرير ، كذلك دم

الطمث ، والأرض لا تنبت شيئاً من النبات من ذاتها. وما كانت حركته دائمة ، فينبغى أن نجعل السبب فيها العلة التى حالها بالقياس إلى الأجسام المتحركة حالٌ واحدة : فأما ما حركته مختلفة فى أوقات مختلفة ، فحال العلة المحركة له فى الاختلاف كحال المتحرك بعينها . والأجسام الكائنة الفاسدة لا تثبُت وقتاً واحداً بحالٍ واحدة . فإذاً تحتاج إلى علة تختلف بحسب اختلافها. ولأن الكون والفساد دائمٌ لا انقطاع له ، فقد تحتاج العلة الفاعلة أن تكون مع اختلافها دائمة البقاء . فيجب أن يكون الاختلاف فى هذه العلة من قِبَلها ، والدوامُ من سبب آخر فهو إذن : إما من العلة الأولى ، وإما من علة أخرى غيرها . ويجب ضرورةً أن يكون من العلة الأولى ، فإن هذه العلة هى السبب فى بقائها دائماً وبقاء العلة الثانية . فصارت العلتان جميعاً علّتى الدوام والاختلاف . وهذا شىء شهد الحسُّ عليه أيضاً: إذ يرى أن الفلك الأول يتحرك دائماً حركة واحدة بعينها ، وأفلاك المتحيِّرة (أى الكواكب السيارة) تتحرك دائماً حركة مختلفة . فإذا كان كذلك ، فما حاجتنا إلى طلب مبادىء أخَر وترك هذه المبادىء ! » (راجع كتابنا : « أرسطو عند العرب » ص ١٢ — ١٤) .

هكذا يشرح ثامسطيوس المقدمات التى تأدى منها أرسطو إلى اثبات محرك أول غير متحرك ، تتحرك به سائر الأشياء ، وهو أزلى أبدى ، باق ، قديم . وهو عقل وحق أول فى الغاية .

لكن كيف يتأتى أن يحرك هذا المحرِّك الأول دون أن يتحرك ، لأننا نشاهد دائماً فى الطبيعة أن كل محرِّك فهو متحرك فى نفس الوقت ؟ إنه إن تحرك تغير ، والتغير يكون ويفسد ، فهو ليس إذن أزلياً أبدياً ثابتاً .

والجواب أن العلة « الأولى إنما تحرك كما يحرِّك المعشوق . وأول ما يتحرك عنها ويقرب منها ويعشقها ويَحرِص على التشبه بهـا — السماءُ الأولى وفلك الكواكب الثابتة إذ كان قريباً منها ، قد استفاد نظامها الذى إياه يعشق على غاية ما يمكن : بمنزلة ما يستفيده القائدُ من مرتبة المَلِك ، إذ كان يقرب منه لا فى الموضع لكن فى الطبيعة . ثم تتبع السماءَ الأولى وحركاتها ، التى بعدها : وهى حركة فلك الكواكب الثابتة وحركات أفلاك الكواكب المتحيرة وسائر الأشياء الباقية التى تقبل الكون والفساد » . (الموضع المذكور ، ص ١٦) .

والله هو العقل على غاية الحقيقة ، وهو أيضاً المعقول على غاية الحقيقة : فهو عقل ومعقول معاً . وتعقله إنما هو لذاته ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم فلما كان الله أشرف الموجودات ، فينبغى أن يكون معلومه أشرف المعلومات ، أى أن يكون تعقله لذاته . وتعقله لذاته هو فعله الدائم ، وهذا العقل الدائم هو حياته . و « الله ناموسٌ وسبب نظام الأشياء الموجودة وترتيبها . وهو ناموس حىٌّ كما لو أمكن أن يكون الناموس متنفساً يرى ذاته ويعقل ذاته . وحياة هذا الناموس ليست هى حياة دائمة لا أول لها ولا انقضاء فقط ، لكن على غاية الفضيلة . وكذلك أن أفضل الحياة العقل ، وأشرفُ جميع ما له حياة . وحياته ليست فى وقت بعد وقت بأحوال مختلفة مثل حياتنا ؛ لكن هو الحياة بعينها ، لأنه هو الفعل ، والفعل حياة . وكما أنه أفضل الأفعال ، كذلك هو أفضل الحياة . وكما أنه فعلٌ أزلى دائم ، كذلك هو حيـاة أزلية دائمة ... إن الله حياة أزلية دائمة فى غاية الفضيلة ، فيجب أن تكون لله حياة أزلية وبقاء متصل أزلى دائمٌ الدهرَ كلَّه » . (الموضع المذكور ٢ ص ١٨) .

لكن أرسطو ، بعد هذه النبرات العالية فى تمجيد العلة الأولى ، جاء فى الفصل الثامن من مقالة اللام فراح يبحث عن عدد الحركات الأزلية الأبدية ، ووجدها إما ٤٧ أو ٥٥ ، ورأى أن يكون عدد العلل

الأولى المحركة بعدد هذه الحركات أى ٤٧ أو٥٥ . لكنه فى الفقرة١٠٧٤ ا ٣٢ — ٣٨ يستدرك على هذا التكثير للعلة الأولى فيقول كما لخصه ثاسطيوس : « إنه إن كان العالم أكثر من واحد ، فيجب أن تكون العلل الأولى أكثر من واحد . والأشياء التى صورتها واحدة وعددها كثرة يكون السبب فى كثرتها المادة والعنصر . والمحرك الأول لا تشوبه الهيولى ، ولا هو ذو جسم ، فيجب أن يكون المحرك الأول واحداً فى الحد والعدد . والجسم المتحرك أيضاً ، إن كان متصل الحركة ، يجب أن يكون واحداً . فالعالم واحد » (الموضع نفسه ص١٩) . وإذن فالعلة الأولى واحدة أى أن « الله » واحد .

كما أنه رأى من ناحية أخرى ، فى ختام مقالة اللام هنا ، أنه لو كانت المبادئ كثيرة لم تكن السياسة خير السياسات . قال ابن رشد شارحاً لهذه الجملة : « يريد (أى أرسطو) : وإن كانت المبادئ الأولى للعالم مبادئ مختلفة ، فى الموجودات التى ها هنا لا يمكن أن توجد فيها خير السياسة ، ولا نظام يشبه نظام السياسة وخيره ، كما أنه إذا كانت الرئاسات كثيرة لم يوجد للسياسة نظام ولا استقامة واعتدال ، ولذلك كما قال : لا خير فى كثرة الرؤساء ، بل الرئيس واحد » (ابن رشد : « تفسير ما بعد الطبيعة » جـ ٢ ص ١٧٣٥ — ١٧٣٦) .

وهكذا ينتهى أرسطو إلى التوحيد .